١ – تقديم

كثر الحديث حول احياء التراث المعمارى والتخطيطى والحضارى للمدينة الاسلامية وقد اختلفت اتجاهات تناول الموضوع فمنها من يتناول المسألة على انها مكونات مادية وفنون زخرفية وطراز معمارى يجب الحفاظ عليه .. ومنها من يتناول المسألة على انها قيمة وتراث حضارى ملك للبشرية يلزم حمايته من الضياع والاندثار .. ومنها من يتناول المسألة على انها جزء من شمولية الدعوة الاسلامية ونشر العقيدة وحماية الشخصية الاسلامية من الضياع والذوبان فى غيرها من المذاهب والعقائد والايدلوجيات ونحن من انصار الاتجاه الاخير .

وبناء على ذلك فانه من غير الموفق ان يتم تناول مسألة " التراث التخطيطى والمعمارى للمدينة الاسلامية " كما لو كان الامر مسألة معمارية او تخطيطية ،كما لو كان الطراز المعمارى الاسلامى مثله مثل الطراز المعمارى الاغريقى او الرومانى او القوطى او الهندى او اليابانى .... الخ ،وكما لو كان النمط التخطيطى للمدينة الاسلامية مثله مثل نمط تخطيطى للمدن الشطرنجية او الشريطية او اى نمط يتبع المدارس التخطيطية الحديثة .

من هذا المنطلق فاننا نتناول الموضوع ليس بمفهوم احياء التراث المعمارى او التخطيطى القديم بالمدينة المعاصرة ولكننا نتناول الموضوع من خلال مفهوم تأصيل القيم الاسلامية فى مجتمع المدينة المعاصرة ،ومن البديهى انه بمجرد تأصيل القيم الاسلامية فى مجتمع المدينة المعاصرة فاننا نكون قد اصلنا القيم الحضارية الاسلامية للعمارة والتخطيط بالمدينة المعاصرة .. فلم يوجد التراث المعمارى والتخطيطى للمدينة الاسلامية الا بوجود المجتمع الاسلامى وهو بدوره لم يوجد الا بوجود الاسلام .

وبهذه المفاهيم .. فأننا عند تناول اى مشكلة معمارية كانت او تخطيطية فاننا يجب ان لا نبحث فى الشكل او المظهر فحسب ،ولكننا يجب اولا ان نبحث فى مسألة الثوابت والمتغيرات .. والثوابت هى كل ما يرتبط بالعقيدة من قرآن وسنة نبوية واجماع السلف الصالح ،ومن البديهى انها ثوابت مع اختلاف الزمان او المكان لانها نابعة من العقيدة التى لاتتغير مع الزمان او المكان . اما المتغيرات فهى ما يظهر فى مرحلة زمنية معينة لكى يوافق حاجة اجتماعية او اقتصادية او فنية او هندسية او جغرافية ،ولكنه لايصل الى مستوى الثوابت ولذلك فهى متغيرة من زمن الى اخر كما هى متغيرة من مكان الى اخر ،ولكن هذا التغير محكوم فى اطار الثوابت .

ولتقريب المسألة الى الاذهان .. فان مسألة احترام الجار ، او احترام خصوصية الاسرة ، او البعد عن الزخارف الآدمية تعتبر من الثوابت الاسلامية مهما تغير الزمان او المكان .. اما المتغير فهو استعمال مواد البناء كالطين او الحجر ، او عناصر انشائية كالعقود او القباب او المقرنصات ، او عناصر زخرفية كالفسيفساء او الكسوات الخشبية ، او انماط تخطيطية كالشارع المتكسر او المسقوف ..... الخ .

وبناء على ذلك فاننا حين ندعو الى تأصيل القيم الاسلامية فى التخطيط والعمارة بالمدينة المعاصرة ندعو ضمنيا الى التمسك بالثوابت وذلك فى اطار الدعوة الاسلامية الشاملة .. وهذا يعنى ان الدعوة الى التأصيل ليست دعوة الى المحافظة على طراز معمارى او تخطيطى فحسب لانها دعوات تفتقر الى الشمولية ولاترتبط الابالجانب المادى من الموضوع .. ولكنها دعوة الى شمولية النظرة بتأصيل القيم بأبعادها العقائدية ومايتبثق عنها من مظاهر اجتماعية واقتصادية وعمرانية .

ويرتبط علم تخطيط المدن بشكل جوهرى بالمجتمع بشقيه المادى والوجداتى ،يرتبط بمدينته ومسكنه وشبكات مواصلاته كما يرتبط بالانسان وعاداته وتقاليده وتصرفاته الفردية . فالتخطيط يمس كافة جوانب المدينة ويتعامل مع هيكلها الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى . وبالتالى يجب ان يكون التخطيط - وبالضرورة النظريات المستعملة فى اعداده - نابعا وموافقا للظروف المحلية لامستوردا فى افكاره ونظرياته من مجتمع اخر ،خصوصا مع اختلاف الدين والقيم والجذور الاجتماعية .

ونحن فى مجال تخطيط المدن - شأننا فى ذلك شأن العاملين فى مجالات العلوم الاخرى - مازلنا نقف موقف المقلدين والتابعين لما يجد فى العالم الغربى . والسؤال الان ،الى متى نقف موقف المقلدين والتابعين ؟ فقد نقلنا قواعد ونظريات ومعدلات تخطيط المدن فى العالم الغربى وطبقناها وهى فى قالبها المستورد الاجنبى . بحيث لم توضع فى اطارها الاسلامى الصحيح الذى يناسب المجتمع الاسلامى الذى تقام من اجله المدينة .

ولعل من ابرز المفارقات ان نظرية المجاورة السكنية التى تستعمل كأساس لتخطيط الاحياء السكنية ،مازالت تدرس وتطبق وهى فى قالبها الغربى المستورد ،مع ملاحظة ان النظرية بشقيها الاجتماعى والمادى لم تبحث من خلال قيم المجتمع الاسلامى علما بأن الدين الاسلامى الحنيف كان من أجل اهتماماته المجتمع ،حتى اننا اذا قسمنا آيات المصحف الشريف نجد ان ثلثه توحيد وثلثه عبادات

وثلاثه معاملات .. وهى اساس علم الاجتماع الاسلامى .

هذا الامر يدعونا الى ان نعيد النظر فى النظريات المعمارية والتخطيطية المستعملة حاليا .. سواء كان ذلك فى مجال البحث او التدريس او التطبيق بحيث نرد هذه النظريات الى الاصول الاسلامية ،وبحيث يتم وضع صياغات اسلامية لها تكون عونا على تأصيل القيم الاسلامية فى المدينة والعمارة المعاصرة . ومن هنا تبرز اهمية وضع صياغة اسلامية لنظرية المجاورة السكنية لكى تكون اساسا لتخطيط المناطق السكنية بالعالم الاسلامى .

٢ - نظرية المجاورة السكنية فى قالبها الغربى

فى سنة ١٩٣٩ ،وصف كلارنس بيرى المجاورة السكنية على انها تلك المساحة التى تشمل مجموعة من الناس وخدماتهم التى توفى بمتطلبات العائلة العادية وتوفر لها الراحة والوسائل الكفيلة لضمان حياة حسنة . وقد تحدث عن الخدمات المطلوب توفيرها فقال انها على الاقل يجب ان تكون مدرسة ابتدائية ومحلات تجارية للبيع بالتجزئة وخدمات ترفيهية متنوعة . وقد عرفت الاهداف من المجاورة السكنية ،التى تبلورت فى :-

أ - تحقيق الوصول الى نمط تخطيطى طبيعى جديد للمدن .

ب - ايجاد نمط لتوزيع مجتمع المدينة .

ج - ايجاد نوع من الروابط الاجتماعية بين السكان .

د - ايجاد نظام نمطى لتوزيع الخدمات على مستوى المدينة .

وقد حددت معايير للمجاورة السكنية تبين مكوناتها المختلفة ،سواء كانت سكنية او خدمات تجارية او تعليمية او طرق واختلفت معايير التقسيم تلك بين دولة واخرى ،وبين مدينة واخرى وبين موقع واخر بالمدينة الواحدة تبعا للظروف المؤثرة ولكن عموما بلغت نسبة الجزء السكنى ٦٠٪ والشوارع والممرات ٢٠٪ والمدارس ٦٪ والخدمات التجارية ٤٪ والمناطق المكشوفة والمنشئات الاجتماعية الاخرى ١٠٪ ودارت مناقشة حامية حول اى المنشئات او الانشطة لها اولوية داخل المجاورة السكنية بحيث تعتبر نواتها ؟ هل تكون المدرسة الابتدائية او المركز التجارى ؟ وانتصر لهذا الراى جماعة وللراى الاخر جماعة اخرى . كما حددت الشروط الواجبة فى المجاورة لكى تعتبر كذلك كأن تكون لها حدود واضحة والا يسمح فيها للمرور العابر وكذلك مسافات مشى قصوى الى المدرسة والسوق حددت بما لايزيد عن ٤٠٠ مترا ،وحدد كذلك عدد سكان المجاورة بما يتراوح بين ٥٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ نسمة .

كما عرفت منشئات الخدمات الاجتماعية العامة الاخرى على انها تلك المنشئات التى تقدم الخدمات العامة لعموم المواطنين مثل المكتبات العامة ودور العبادة ،وصالة الرقص ،والكافيتريا والنادى ومكاتب البريد والتلغراف والتليفون وغرف تجميع القمامة والتخلص منها ودورات المياه العمومية ... الخ واحيانا يقسم هذا البند الى جزئين يعرف واحد على انه منشئات الخدمة الاجتماعية والتى عرفت على انها ذلك المكان الضرورى المناسب لتنمية العلاقات الاجتماعية بين السكان ،وبينت على انها قد تكون ناديا رياضيا او صالة رقص او صالة اجتماعات او صالة العاب او كافيتريا ..... الخ ،وذلك حسب العادات او العلاقات الاجتماعية القائمة اما منشئات الخدمات العامة فهى المكتبات ودور العبادة ومكاتب البريد والتلغراف والتليفون .... الخ .

وممـا يلاحظ على تلك النظرية انها ذات شقين ، اولهما يرتبط بأنماط توزيع السكان ،وتوزيع الخدمات ،والنمط التخطيطى العام للمدينة . وثانيهما يرتبط بتنمية الجانب الاجتماعى والمعنوى للسكان بايجاد نوع من الترابط والالفة ،بشكل مباشر بين مجتمع المجاورة السكنية ،وبشكل غير مباشر بين مجتمع المدينة ككل .

٣ — مناقشة نظرية المجاورة السكنية

والان نعود لمناقشة شقى النظرية ومعرفة سلبياتها وايجابياتها ،فالشق الاول يمكن ان تتحد ايجابياته فى ايجاد انماط تخطيطية للمدينة ومجتمعها بحيث تقسم المدينة لمجاورات سكنية بها خدماتها الاجتماعية والاقتصادية الضرورية وتصمم المجاورة بشكل يسمح بان تكون الحياة فيها آمنة للسكان وتبعدهم كل البعد عن اخطار الطريق والمرور السريع بحيث لايسمح للمرور المحلى الخاص بالمجاورة بالدخول اليها . وهذا اتجاه جيد ،ويتفق كل الاتفاق مع ما كان عليه الحال بمدينة الامس العربية الاسلامية حيث كانت المدينة بالمثل تقسم الى احياء سكنية تتميز تلك الاحياء بوجود حدود واضحة المعالم ،وتحتوى تلك الاحياء على المساجد والمحلات التجارية اللازمه للسكان كما كانت تلك الاحياء تتصف شوارعها الداخلية بصفة المحلية بحيث ان المرور الغريب عن الحى لايعبر من خلال الحى بل من اطرافه او خارجه . وتقسيم المدينة الى احياء يمثل نمط تخطيط متعارف عليه لتوزيع سكان المدينة وتقسيم مساحتها ،وكان هذا الحال عاما وشاملا فى كافة المدن العربية الاسلامية بل ووصل الامر الى شكل ديمقراطى اكثر مما عليه الحال فى نظريات التخطيط الحديثة

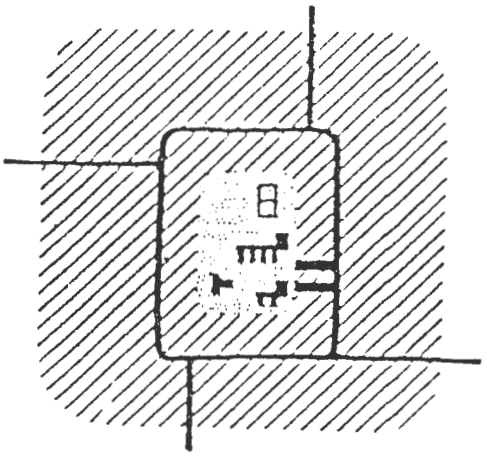

أنماط توزيع الخدمات فى المجاورة السكنية بقالبها الغرب ....
يلاحظ أن مراكز الاهتمام الشترك ووسائل تنشيط العلاقات الاجتماعية داخل المجاورة إما المدرسة واما المركز التجارى أو كلاهما معاً ....
ولا يوجد ذكر لدور العبادة فى هذا المجال، كما لا يوجد لها مكان داخل إطار المجاورة السكنية.

الرسومات عن كتاب town Design للمؤلف Gibbert. F.

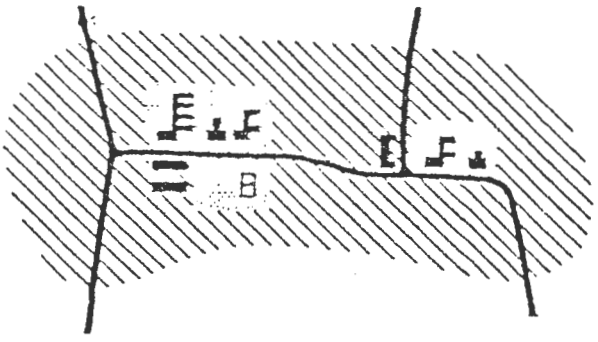

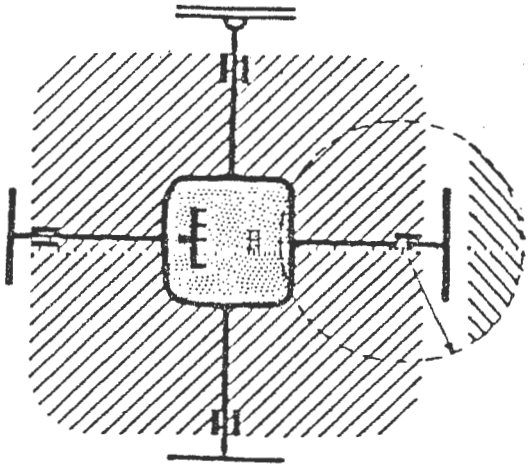

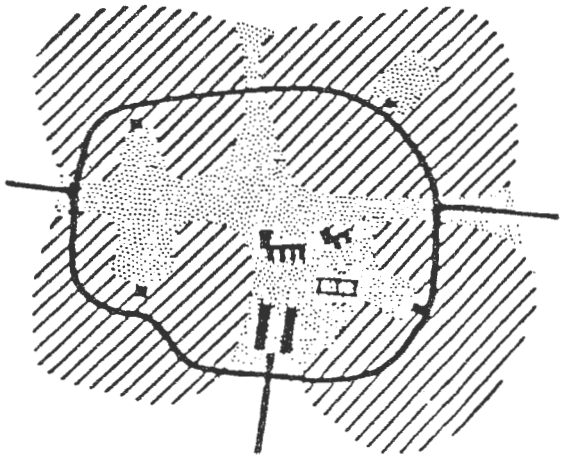

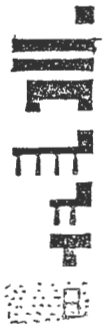

خانة مشتركة
مركز تجارى
تجارى يومى
مدرسة اعدادى
مدرسة اطفال
حضانة
ملاعب

حيث كان لكل حى رئيس او شيخ يتولى تصريف اموره ومشاكله اليومية الداخلية ،وهو يعتبر همزة الوصل مع الحكم . ومازالت بعض هذه المظاهر قائمة فى مدينة اليوم حيث نجد شيخ الحارة مثلا . اذن فالشق المادى من نظرية المجاورة السكنية له اصوله وجذوره العربية الاسلامية ولم يأت بجديد .كان غائبا عن واقع مدينتنا بالامس .

واذا انتقلنا الآن الى الشق الثانى من نظرية المجاورة السكنية الذى يرتبط بالجانب الاجتماعى والمعنوى للسكان ،نجد ان النظرية اهتمت بوسائل ابراز العلاقات الاجتماعية للسكان وايجاد ترابط والفة بينهم وعددت وسائل ذلك سواء فى المحلات التجارية او المدارس او الملاعب والنوادى او صالات الالعاب .... الخ وبالنظرة الموضوعية الشاملة لذلك الشق نجد انه وان كان الهدف سليما ونبيلا فى حد ذاته الا ان منهاجه غير موفق فهذا المنهج المتبع لاحياء الروابط الاجتماعية بين السكان يرتبط بالجانب المادى من الانسان دونا عن الجانب المعنوى والروحى . فهل المدرسة او المتجر او النادى او صالة الاجتماعات او الرقص او الكافيتريا او صالة الالعاب توجد روح الاخوة والتعاطف وحسن الجوار بين الاخ واخيه ؟ وهل تدعو الى احترام وتقديس حرمات الغير وحماية ماله وعرضه ودمه ؟ وهل تدعو الى المساواه بين كافة الناس ،وتحدد لهم المقياس الابدى الذى لايتغير ولايتبدل للمفاضلة بين البشر ؟ وهل تنمى بذرة المحبة والالفة بين الناس وتضع لهم اللبنه الاولى لايجاد تلك الالفة فى كلمة "السلام عليكم " كان من الاولى بالنظرية وهى تهتم بايجاد مشاعر الجيرة والعلاقات الاجتماعية" بين مجموع السكان ان تنظر الى الناحية الروحانية من الانسان وان يلعب الدين دوره الاجتماعى ولكن للاسف طبقنا تلك النظرية كما هى مستوردة ، وحيث بعدت الكنيسة عن دورها القيادى فى المجتمع وتوارت فى ظل النسيان ،تطبق نفس النظرية ونضع المسجد فى نفس دائرة الظل !!!

٤ - المجاورة السكنية فى المفهوم الاسلامى

ويبرز الان اهمية وضع صياغة اسلامية لنظرية المجاورة السكنية بشقيها الاجتماعى والمادى .. ولكى يتم وضع هذه الصياغة يجب ان يكون عندنا سندا من القرآن والسنة بحيث يتم صياغة النظرية فى اطارهما .. كما يتم بحث المدلول اللغوى والمعنوى

لكلمات " المجاورة " و " السكنية " ،وببحث هذه المدلولات اسلاميا يتم تحديد المفاهيم التى يمكن ان نبنى عليها صياغة النظرية اسلاميا .

٤-١ المجاورة

و"المجاورة" هى المكان الذى يحدث فيه الجوار والجيرة، وهى تتكون من مجموعة من الجيران ،وقد تعرضت الشريعة الغراء للجار وحقوقه سواء فى القرآن والسنة وذلك فى نصوص كثيرة تحض على حسن معاملة الجار والاحسان اليه واكرامه والتعاون معه فيما يرضى الله عز وجل ..

ففى مجال الاحسان الى الجار يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم .... بسم الله الرحمن الرحيم

(واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا)
(وبالوالدين احسانا)
(وبذى القربى واليتامى والمساكين)
(والجار ذى القربى)
(والجار الجنب .....)

(سورة النساء ٣٧)

كما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

(مازال جبريل يوصينى بالجار حتى)
(ظننت انه سيورثه)

وفى مجال اكرام الجار يقول الرسول عليه الصلاة والسلام

(من كان يؤمن بالله واليوم الاخر)
(فليكرم جاره .....)

ويقول عليه الصلاة والسلام فى جامع الكلم فى حقوق الجارعامة

(حق الجاران استجار بك اجرته)
(وان استعان بك اعنته)

(وان استقرضك اقرضته ،)
(وان مرض عدته وساعدته)

(وان اصابته مصيبه عزيته ،)
(وان اصابه خير هنأته ،)

(وان مات اتبعت جنازته ،)
(ولاتوذه بقتار قدرك الا)

(ان تغرف له منها ،واذا احضرت)
(فاكهة فاهد له منها فان)

(لم تفعل فادخلها سراولاتخرج)
(بها ولدك ليغيظ بها ولده)

(ولاتستطل عليه فى البنيان)
(فتحجن عنه الريح الابأذنه)

وحيث ان مجموعة الجيران تكون المجتمع ،فاننا حين نعرض لمسألة الجيرة والجار نعرض تلقائيا للمجتمع . وقد اهتم الدين الاسلامى بالمجتمع ،فكما شرع العبادات التى تحكم العلاقة بين العبد وربه ،سن التشريعات التى تحكم العلاقة بين الناس ،حيث امر الله عز وجل بترابط مجتمع المسلمين

(واعتصموا بحبل الله جميعا)
(ولاتفرقوا .....)
(آل عمران ١٠٣)

وبين الله سبحانه وتعالى واحدة من اهم قوانين علم الاجتماع فحدد اساس المفاضلة بين الناس بعضهم وبعض فى التقوى اما التفرقة والمفاضلة بالجنس او اللون او المال فانه امر بعيد عن الاسلام

(يا أيها الناس انا خلقناكم)
(من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا)

(وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند)
(الله اتقاكم ان الله عليم خبير)

(الحجرات ١٣)

وقد دعى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى التراحم والود بين افراد المجتمع

(مثل المؤمنين فى توادهم)
(وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى)

(منه عضو تداعى له)
(سائر الاعضاء بالسهر والحمى)

كمـــــا دعى عليه الصلاة والسلام الى التعاون والتكاتف بيـــــن المؤمنيـــــن .

(المؤمـــن للمؤمـــن كالبنيـــــان)
(يشـــد بعضـــــه بعضـــــا)

ولمـــــا كان الفرد هو اللبنة الاولى فى بناء المجتمـــــع فان رعايته تأخذ من الاسلام المقام الاول ،فلا غرو ان يهتـــــم الاسلام بالمحيط الذى ينشأ فيه والمجال الذى يرعاه وهو الاســـــرة . على ان الاسلام لايهتم بالاسرة بمعزل عن المجتمع . فالاسرة هى المجتمع الاسلامى الاصغر ،ونواة المجتمع الاسلامى الكبير ،واذا صلح الجزء صلـــح الكـــــل .

ودعـــــى الاسلام الى المحبة بين افراد الاسرة ،وقـــــرن حب الوالدين وطاعتهما بالايمان بالله عز وجـــل

(وقضـــى ربك الا تعبـدوا الا ايـــاه)
(وبالوالديـــن احســـانـــا .....)
(الاسراء. ٢٣)

وبيـــــن الله عز وجل ان زينة الحياة الدنيا فـــــــى الابنـاء الذين هم جزء من الاسرة

(المـــالوالبنـــون زينـــة الحيـــاةالدنيـــا..)
(الكهف ٤٦)

وقـــــد امر الله عز وجل بغض البصر وعدم التطلع الـــــى حرمات الغير واحترام خصوصياتهـــــم

(قـــل للمؤمنيـــن يغضـوا مـــن ابصارهـــم)
(النور ٣٠)

وكمـــــا شرع الله تعالى حرمات للاسرة شرع حرمـــــات لمسكنها ونهى عن التعدى على حرمتـــــه

(يـا ايهـاالذيـــن امنـــوا لاتدخلـــــوا)
(بيوتـــا غيـــر بيوتكـــــم)

(حتـى تستأنســـوا وتسلمـــــوا)
(علـــى اهلهـــا ذلكـــــم)

(خيـــر لكـــم لعلكـــم تذكـــرون)
(فـان لـــم تجـــدوا فيهـــا احـــدا)

(فلا تدخلـوهـا حتـى يـؤذن لكـــم.....)

(النور ٢٧)

٤-٢ "السكنيـــــــــــة"

"والسكنيـــــــة" مشتقة عن السكن والسكينة وتعنى ضمنيا مكانـــا يتمتع بالهدوء والامن ،وبالتالى فانها مكانا لاتوجد به مصـــــادر ازعاج وضوضاء . وحيث ان السكينة تعنى ضمنيا السلامة ،فانهـــــا تعنى ضمنيا عدم وجود مايسبب الخطر على الارواح او الممتلكـــــات او الصحة العامة ،حيث تنعدم مصادر التلوث ومصادر الخطر ،حيـــث يمكن للمقيمين ونساؤهم واولادهم العيش والتنقل بحرية واطمئنـــان بدون ان يروعهم مروع او يزعجهم مزعج او يهدد سلامتهم خطـــر. والسكينة تشمل ضمنيا النظافة والجمال ،وبالتالى فيجب ان يتمتـــع المكان الذى يوصف بالسكينة بالنظافة العامة وبدرجة كبيرة مـــن الجمال حيث نجد عناصر الطبيعة والجمال فى كل زاوية وركـــن .

واذا تكلمنـــا عن السكنية والسكن فاننا نتعرض الى "المسكن" او"البيت "حيث يقيم الانسان .. ويقول الله تبارك وتعالـــى

(واللـــه جعـــل لكـــم مـــن بيوتكـــم سكنـــا..)
(النحـــل ٨٠)

فهكـــــذا يريد الله تعالى لنا ان يجعل من بيوتنا حيـــث نقيم مكانـــا للسكينة والاطمئنان والراحة ،مكانا تسكن فيه النفـــوس وتأمن . وبالتالى فيجب ان يتمتع البيت بمستلزماته المادية التـــى توجد صفة السكن ،صفة الراحة والاطمئنان . كما يضمن الاسلام للبيـــت حرمته وامنه ،فلايتطلع احد الى مافيه ومن فيه حتى لايخل ذلـــك بصفة السكن التى ارادها الله تعالى لبيت المسلم . ومن هنـــا صارت كلمة "البيت" يرادفها كلمة "المسكن" حيث ان كل بيت مسكنـــا .

وتأكيـــدا لحرمة البيت المسلم فقد نهى الله عز وجـــل عن دخول البيوت بدون اذن صاحبهـــا .

(يـا أيهـا الذيـن آمنـوا لاتدخلوا بيوتـا)
(غيـــر بيوتكم حتـى تستأنســـوا)
(وتسلمـــوا علـــى اهلهـــا.....)

(النـور ٢٧)

كمـــا استمد البيت حرمته من حرمة الاسرة المقيمة فيـــه حيث امر الله عز وجل بعدم التطلع الى حرمات الغير وامرباحتـــرام خصوصياتهم ،كما امر بغض البصر وربط بين ذلك بالايمان.

(قـل للمؤمنيـن يغضـوا مـن ابصارهـم)
(النـور ٣٠)